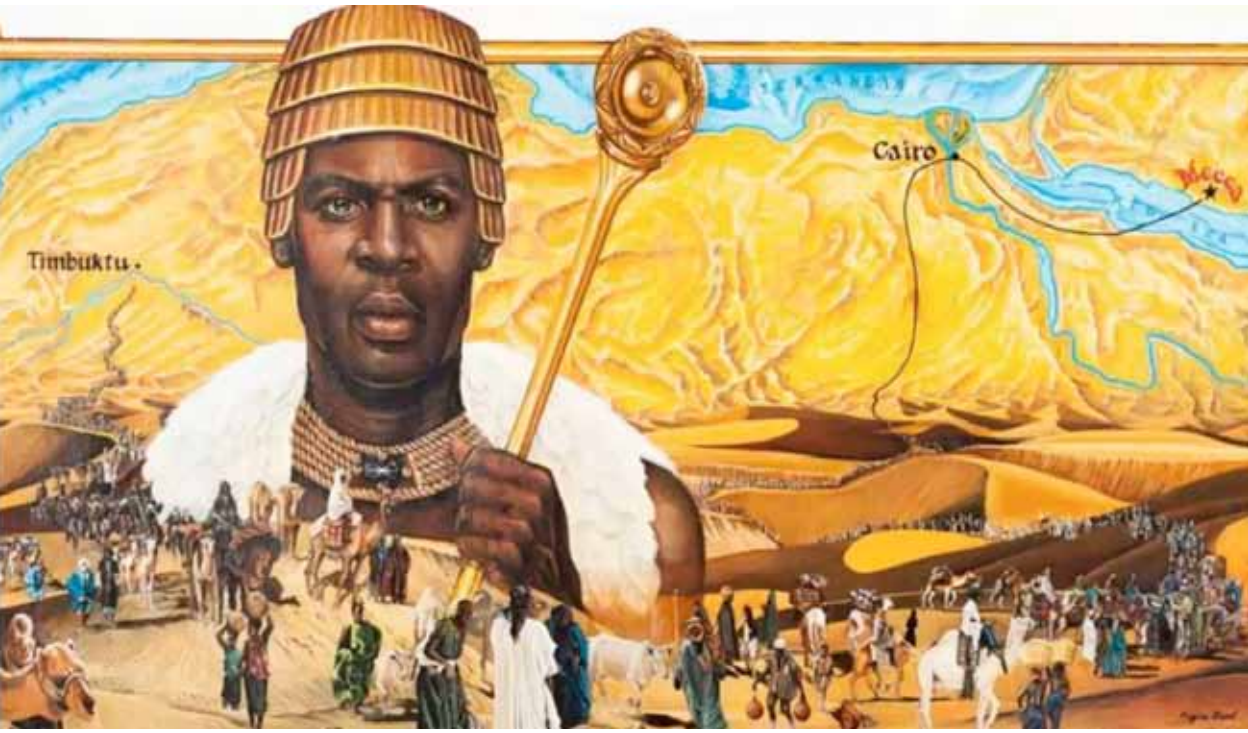

تجارة الذهب في غرب إفريقيا في العصر الوسيط

د. إسماعيل حامد إسماعيل علي
باحث في تاريخ إفريقيا الوسيط – مصر

تحاول هذه الورقة إلقاء مزيدٍ من الضوء على «الذهب»، وتجارته في بلاد غرب إفريقيا، أو ما يُعرف في «المصادر الكلاسيكية» باسم بلاد «السودان الغربي» Western Sudan إبان حقبة «العصر الوسيط»، وما نتج عن ثراء هذه البلاد بمناجم المعدن النفيس، وذيوع شهرتها بين تجار أوروبا الذين كانوا يأتون إلى أسواق بلاد الشرق في ذلك الوقت، وهو ما أدى لتكالب المستعمرين الأوروبيين في نهاية المطاف، ومن ثَمّ وضعوا المؤامرات التي تهدف للسيطرة على ثروات هذه البلاد، والتحكم في «تجارة الذهب» بدلاً من التجار العرب والبربر.

وعلى الرغم من إشارة بعض الدراسات التاريخية بشكلٍ أو بآخر إلى «تجارة الذهب» في مناطق غرب إفريقيا؛ فإنها لم تتحدث عن بعض الإشكاليات ذات الأهمية التي ترتبط بهذه التجارة بشكلٍ واضح، وتحاول هذه الورقةُ أن تُميطَ

عنها اللثام، وذلك من خلال روايات المصادر التاريخية.

أولاً: ممالك غرب إفريقيا أرض الذهب:

لا ريب في أنه ذاعت شهرة ممالك «غرب إفريقيا»، ولا سيما «مملكة غانة» (٤٦٩-٦٠٠هـ)، ومملكة «مالي» (٥٩٦-٨٧٤ هـ)، ومن بعدهما «مملكة صُنغي» (٧٧٧-١٠٠٠هـ)، بوفرة مناجم الذهب، وأسواقه، ومن ثَمّ سيطرتها على تجارته. وقد ارتبط الحكام في هذه الممالك بالمعدن النفيس، وصار يُطلَقُ عليهم: «ملوك الذهب»، وهو ما يبدو جلياً في روايات «العصر الوسيط»، فعن «الذهب» (أو التِّبر)، في بلاد غانة، يقول ابن حوقل النصيبي (ت: ٣٥٠هـ): «وغانة أيسرُ مَن على وجه الأرض من ملوكها، بما لديهم من الأموال المدّخرة من التِّبر.. »[١].

كما يذكر الشريف الإدريسي (ت: ٥٤٨هـ) عن ملك غانة: «وتتصل مملكتُه، وأرضُه بأرض ونقارة، وهي بلاد التِّبر المذكورة.. »[٢]، وفي هذا الشأن نفسه يؤكد «القزويني» (ت: ٦٨٢هـ) ثراء غانة بالذهب، ويذكر أنها «أكثرُ بلاد الله ذهباً»[٣]، بل يذكر أحد المصادر أنّ ملك غانة كان لديه في قصره لبنة من الذهب، تزن حوالي ٣٠ رطلاً من الذهب، وهي كتلة واحدة عُثر عليها في هذا الحال، ولم تُسبك في النار من قبل[٤]. وكلها إشاراتٌ مُهمةٌ عن مدى ثراء هذه البلاد بالمعدن النفيس.

وكان «سلاطين مالي» فيما بعد يتحكمون في أكثر مناجم الذهب في بلاد «السودان الغربي»، والتي كان يسيطر عليها ملوكُ غانة من قبل، إذ إنّ المصادر التاريخية تشير إلى أنّ حكام مالي كانوا يسيطرون على أراضي غانة بعد أن سقطت هذه الأخيرة، ثم زادوا من تخوم بلادهم، وامتدادها على ما جاورها من الأقاليم، يقول «القلقشندي» (ت: ٨٢١هـ) عن ثراء مالي بالذهب: «إنّ في طاعة سلطانها (أي مالي) بلاد مغارة الذهب..»[٥]، ويقول محمود كعت (ت: ٩٥٥هـ)، وهو صاحب (تاريخ الفتاش) عن السكان في مالي: «وأهلُها ذَوُو ثروةٍ، ورفاهةِ عيش، وحسُبك بمعدن الذهب في أرضهم..»[٦].

بينما يذكر الرحالة «ابن بطوطة» (ت: ٧٧٩هـ) في روايته: أنّ «سلطان مالي» كان يجلس على «مصطبةٍ» تحت شجرة لها ثلاثُ درجات، وكانت تُفرش بالحرير، وكان عليها شبه قُبّة مزخرفة بصفائح من الذهب والفضة. وكان السلطان يخرج من باب القصر واضعاً على رأسه تاجاً من الذهب، يُشَدّ بعصابةٍ محلاة هي الأخرى بالذهب[٧].

كما يذكر «ابن بطوطة»: أنّ المغنيين لدى «سلطان مالي»، وكان يُدعى في أيامه: «منسا سليمان» (٧٤١-٧٦١هـ)، كانوا يحملون بأيديهم قنابر مصنوعةٍ من الذهب والفضة[٨]. وكان «السلحدارية» لدى هذا السلطان يحملون الأسلحة؛ من تراكش الذهب والفضة (جمع تركاش، لفظ فارسي معناه الجعبة أو الكنانة)، وسيوفهم التي كانت في الوقت نفسه مُحلّاةً بالذهب، وكانت أغمادُها من الذهب، وحتى رماحهم كانت بعض أجزائها مصنوعة من الذهب والفضة، وكانت لها دبابيس من البلّور. كما كانت نساء السلطان يضعن على رؤسهنّ العصائب المحلاة بالذهب والفضة[٩].

وغير ذلك من الإشارات التاريخية المهمة الواردة في بعض المصادر الكلاسيكية، والتي تؤكد ثراء ملوك غرب إفريقيا، وخاصةً في كلٍّ من مملكتي «غانة» و«مالي»، وفخامة مجالسهم، وبلاطهم الملكي، وكذلك ثراء حاشيتهم،

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٠٢.

(٢) الإدريسي: نزهة المُشتاق، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٨م ص٢٣.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥٧.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣. كما يذكر ابن الوردي (ت: ٨٦١ه) عن ملوك غانة، وشدة ثرائهم: «وفي قصره تِبرة واحدة من ذهب كالصخرة العظيمة، وهي خِلْقة الله، وفيها ثقب كالمربع، وهو مربط فرس الملك..» (ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: أنور زناتي، كتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٣م، ص١٣٦).

(٥) القلقشندي: صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٢٨٧.

(٦) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٦٥.

(٧) ابن بطوطة: تحفة النظار، تحقيق: محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص٦١٤.

(٨) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٦١٦. ومن المعروف أن لقب «مَنْسَا» في لغتهم المحلية يعني: «الملك» أو «السلطان» (وللمزيد انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، تحقيق: أحمد أبوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص١١٦).

(٩) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦١٧.

وأتباعهم، إذ كان الذهب يكاد يكون موجوداً عندهم في كلّ شيء، ومن ثَمّ صار الذهب، وتجارته، في ممالك غرب إفريقيا (ولا سيما غانة ومالي) عماد الحياة، ويُعتبر بمثابة الركيزة التي يقوم عليها الاقتصاد في هذه البلاد آنذاك[١].

ثانيا: مناجم الذهب في بلاد السودان الغربي:

عُرفت العديدُ من المناطق في القارة الإفريقية باسم «الذهب»، وكانت «مناجم الذهب» تقع في العديد من المناطق داخل أراضي هذه القارة: شرقاً، وغرباً، وجنوباً، ولا سيما المناطق التي تُعرف بـ(بلاد التكرور)، أو (السودان الغربي)، وعلى هذا تُعتبر بلاد غرب إفريقيا من أهم المناطق في إفريقيا التي تشتهر بالذهب، وتجارته إبان «العصر الوسيط».

وتجارة الذهب من أهم صنوف التجارة التي كانت تتمّ بين التجار في كلٍ من بلاد السودان الغربي من ناحية، وبلاد شمال إفريقيا، وكذلك مصر من ناحية أخرى، عبر طرق القوافل التجارية، ولا سيما ذلك الطريق الذي كان قد اشتُهر باسم «طريق الذهب»، وهو الذي يبدأ من مدينة «سجلماسة» جنوب المغرب، ثم ينتهي إلى مدينة «تمبكتو»، وتقع في مالي حالياً. وكان التجار القادمون من شمال إفريقيا، ومصر وهم تجار الشمال، يتبادلون مع تجار «السودان الغربي» السلع والبضائع التي يأتون بها في مقابل الحصول على الذهب، فكان تجار الشمال يحملون معهم الملح، والمنسوجات والأقمشة، وكذلك السكر، والروائح العطرية، وغيرها من المنتجات والسلع الأخرى التي كان يحتاج إليها الناس والتجار في بلاد السودان الغربي[٢]، وإن كان الملح هو أهم هذه السلع التي كان يُقبل عليه السودانيون، وهو ما كان يُعرف آنذاك بـ«نظام المقايضة»، أو «المبادلة».

وقد نال الذهبُ القادم من أسواق السودان الغربي إلى أرض مصر أهمية كبيرة، خاصةً بعد أن نضب الذهب الذي كان يُستخرج من مناجم «وادي العلاقي»، التي تقع في «الصحراء الشرقية» فيما بين كلٍ من أسوان والبحر الأحمر[٣].

وكانت أكثرُ مناجم الذهب في غرب إفريقيا تقع في الغالب جنوبَي مجرى كلٍ من نهر النيجر، ونهر السنغال، وهما النهران الكبيران في هذه البلاد.

ولعل من أهم المناطق التي كانت تتركز فيها مناجم الذهب في غرب إفريقيا ما يأتي:

مناجم بامبوك:

تقع منطقة «بامبوك» Bambouk عند أعالي المرتفعات القريبة من ضفاف «نهر السنغال»[٤]، وهي منطقة كانت تشتهر بتجارة الذهب، وكان التجار القادمون من شمال إفريقيا، فيما يذكر «كارل جريمبرج» Carl Grimberg، إلى مدينة «جاو» Gao، (تقع في مالي حالياً) في غرب إفريقيا، يقومون بتبادل السلع والبضائع، وكان بعضها يأتي من الأسواق الأوروبية، وذلك في مقابل الذهب الآتي من «مناجم بامبوك»[٥]، وهو ما يشير إلى شهرة هذه المنطقة، وكذلك الذهب الذي كان يتمّ استخراجه من مناجمها، ومن المعلوم أنه كانت بها مناجم غزيرة الإنتاج، حتى يقال في روايات بعض المصادر التاريخية: «إنّ الذهب كان يُصَبّ من مناجم بامبوك كأنه أمواج البحر..»[٦]، ولعل هذا ما يؤيد فكرة ثراء منطقة «بامبوك» بالمعدن النفيس، وكذلك مناجمها.

وعلى أية حال؛ توجد بعض الروايات الأخرى التي تشير إلى أنّ مناجم «بامبوك»، على الرغم من أهمية الذهب الذي كان يستخرج منها، وشهرته، وكذلك قيمته الاقتصادية، لم يكن من السهل استخراج الذهب منها أو هذا النوع من المناجم، واستغلاله، وذلك مقارنةً بالمناجم الأخرى في بلاد غرب إفريقيا[٧]، إذ كان استخراج الذهب من هذه المناجم لم يكن بالأمر اليسير، ربما بسبب وجود عروق الذهب الموجودة في تلك المناجم في مناطق أكثر عمقاً، وهو ما جعل استخراج معدن الذهب هناك أكثر مشقة.

---

(١) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة: مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٠٥.

(٢) علي السيد علي محمود: التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص (٩١–٩٢).

(٣) المرجع السابق، ص٩٤.

(٤) المرجع السابق، ص٩٥.

(٥) Carl Grimberg: Histoire Universelle, Tome 8, Presses de Gerrard, Belgique, No Date, p.275

(٦) Marcel Guilhem; Precis de l› Histoire Ouest Africain, paris, 1995, p.24

(٧) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص٨٩.

مناجم كُوغة:

تقع هذه المناجم بالقرب من تخوم أراضي غانة، وتُعتبر «مناجم كوغة» من أشـهر المدن بالذهب في بلاد السودان الغربـي، ويذكر « أبوعُبيد البكـري» (ت: ٤٨٧هـ): أنها تقع على مسيرة ١٥ مرحلة من غانة، ولعله يقصد مدينة «غانة» العاصمة، وليسـت المملكة ذاتها، والمرحلة تعادل أكثر من ٤٠كم، أي أنّ المسـافة بين كلٍّ مـن «مناجم كوغة» و«غانة» تزيد على ٦٠٠كم بحساب المسافات في أيامنا[١]. ويؤكد أنّ أهلها كانوا مسـلمين في أيامه، وهي على مسيرة ٩ مراحل من منطقة أنبارة، غربَي «مملكة غانة»[٢]، أي حوالي أكثر من ٣٦٠كم. ويصفُ «البكري» مناجم تلـك المنطقة بأنها أكثر بلاد السـودان الغربي ذهباً[٣]، وهو ما يشير دونما رَيْب إلى كثـرة المناجم هناك. كما كانت مناجـم الذهب تحيطُ بها أيضاً، ولم تكن داخل تخومها فحسب، ولهذا قال البكري في روايته: «وحوالِيها من معادن التِّبر كثير..»[٤].

مناجم بيورِي:

توجد منطقة «بيوري» Bure، ومناجمها عند المنطقة التي يلتقي فيها «نهـر النيجر» بأحد فروعه الصغرى الذي يُعرف بـ«نهـر تينكيسـو» Tinkisso[٥]. وتتميـز مناجمُ «بيوري» بأنه كان من السـهل الوصول إليها مقارنةً بغيرها من المناجم الأخرى، كما أنّ اسـتخراج الذهب منها كان يتمّ بطريقة أكثر يسراً من غيرها[٦]، ومقارنةً بـ«مناجم بامبوك» و«مناجم كوغة» على سبيل المثال.

وعن هـذه المنطقة، وأهميتها، والتأكيد على سـهولة اسـتخراج الذهب من هذه المناجم، يقول المستشرق «ك. ماكفيدي»: «وكان الذهبُ فيها أسـهل اسـتخراجاً، مُقارنةً بحقول الذهب التقليدية بمنطقـة بامبوك..»[٧]. كما تتميز مناجمُ الذهب فـي «بيوري» أيضاً بأنها أكثر غزارة بالذهب من غيرها من المناجم الأخرى في مناطق غرب افريقيا[٨].

خريطة توضح أهم مدن وممالك غرب ووسط إفريقيا

وحسـب «أسـطورة أمطار الذهب»، وهي الأسـطورة المحليـة الذائعة فـي أرض غانة عن الأصـل الأول لذلك التصور الشـعبي لدى السـكان المحليين في «مملكة غانة» (٤٦٩-٦٠٠هـ) منذ أقدم العصور، وذلك فيما يخصّ وجود «الذهب»، وكثرته في بلادهم. فقد اشتهرت منطقة «بيوري»

---

(١) المرحلة: من مادة «رحل» في اللغة العربية، ومنها: رحل البعير، ومنها: الرِّحلَة بكسر الراء: وهي الارتحال، ومنها الراحلة: ويُقصد بها الناقة التي تصلح للرحلة، وقيل: الراحلة: المركب من الإبل ذكراً أو أنثى، والمَرحَلة: هي الواحدة من المراحل (انظر الرازي: مختار الصحاح، ص٢٣٧-٢٣٨). وقال ابن منظور: «والمرحلة واحدة المراحل، يقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان. والمرحلة: المنزلة التي يُرتحل منها، وما بين المنزلين مرحلة..» (ابن منظور: لسان العرب، المجلد ٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٢٤). و«المرحلة» في اللغة هي المسافة التي يقطعها المسافر (بالراحلة) في يوم كامل من طلوع الشمس إلى مغربها. وقيل: مرحلتان: أي سير يومَين، وعلى هذا فالمرحلة تعادل تقريباً ٢٤ ميلاً، أو بردين، أو ٨ فراسخ. وقد حدّد بعض العلماء مسافة المرحلة بحوالي ٤٠٣٢٠م، أي أكثر من ٤٠كم (انظر موقع: Islamic-fatwa.com). وفيما يخص مقاييس الأطوال التي استخدمها المؤرخون والجغرافيون العرب القدامى؛ الذراع يساوي: أربع وعشرون أصبعاً، الإصبع: يساوي ست شعيرات مضموم بعضها على بعض، الفرسخ: يساوي ٣ أميال، وقيل الفرسخ يعادل حوالي ٣ آلاف ذراع، وقيل: يساوي ٤ أميال (المسعودي: التنبيه والإشراف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٢٩). ومن المعلوم أنّ «الفرسخ» لفظ فارسي قديم، وكان الفرس أول من استخدم هذا اللفظ، وقيل: إنه يعادل ٥٢٥٠م، وكان «الجومو» أطول من «الفرسخ»، وهو يساوي ٣ فراسخ، أو حوالي ١٨كم (روجيه ج. داجنت: تاريخ البحر الأحمر، ترجمة حسن نصر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٢٤٢).

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد المغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص١٧٩.

(٣) البكري: المصدر السابق، ص١٧٩.

(٤) المصدر السابق، ص١٧٩.

(٥) علي السيد علي: التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور، ص٩٥.

(٦) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص٨٩.

(٧) المرجع السابق، ص٨٩.

(٨) المرجع السابق، ص٨٩.

بالذهب حسب «الأسطورة المحلية» بعد أن قَتَلَ أحدُ الشبان، واسمه «ممادو»، «الثعبان المقدس»، والذي تذكره الأسطورةُ باسم: الثعبان «بيدا» في «مملكة غانة»، وذلك حتى لا تُقدَّم حبيبته (واسمها: «سيا» حسب الأسطورة) قُرباناً لهذا الثعبان حسب عادات أهل غانة، إذ كانوا يقدّمون قُرباناً عبارةً عن فتاةٍ جميلةٍ لهذا الثعبان (المقدس) في كلّ سنة، حتى يمنح بلادهم الاستقرار والأمن[١]. ولما قُتل الثعبان (بيدا)، طارت رأسه إلى السماء حسب الأسطورة، ثم نزلت الرأس بعد ذلك على الأرض، وقد تناثرت في عدة مناطق في أرض غانة، وكان منها منطقة «بيوري»، ومن ثَمّ صارت «بيوري» بفضل ذلك الذي وقع واحدةً من أكثر مناطق «مملكة غانة» ثراءً بالذهب، ولا ريب أنّ تلك الأسطورة المحلية تُعتبر من بقايا «التقاليد الوثنية» القديمة في «مملكة غانة»، وأنها من ميراثهم التقليدي منذ ما قبل قدوم الإسلام إلى بلادهم[٢].

مناجم غابات الأكان وفولتا السوداء:

تُعدّ منطقة «غابات الأكان» Akan Forests هي الأخرى من أشهر المناطق التي يتمّ بها إنتاج الذهب في بلاد غرب إفريقيا، وعلى هذا ذاعت شهرة مناجمها، وكذلك اشتهرت حقول الذهب في منطقة «فولتا السوداء» Black Volta، ولا سيما إبان حقبة ازدهار «مملكة مالي» الإسلامية (٥٩٦-٨٧٤هـ)، وعلى الرغم من هذا فلم تكن هذه المناجم تخضع بشكلٍ أو بآخر لسيطرة حكام تلك المملكة آنذاك. وكان الذهب المستخرَج من هاتين المنطقتين، أي الأكان وفولتا، يتدفقُ عبر الطرق البحرية، ثم كان يتجمع في مدينتَي «جنّي» Jenne و«تمبكتو» (تنبكت) Timbuctoo، ومن ثَمّ صارت كلتا المدينتين محطتَي تجارة مهمتين لطرق القوافل التجارية، التي كانت تعبر مسالك ودروب «الصحراء الكبرى»، سواءً شمالاً أو جنوباً، في اتجاه الأسواق الموجودة في كلٍّ من بلاد المغرب، وشمال إفريقيا من جانب، والأسواق الأخرى في بلاد غرب إفريقيا من جانبٍ آخر[٣].

مناجم لوبي:

تقع منطقة «لوبي» Lobi عند أعالي «نهر الفوتا» (فوتا جالون) في أقصى جنوب بلاد غرب إفريقيا[٤]، وتتميز مناجم «نهر الفوتا» بأنها ذات كميات كبيرة من خامات الذهب، وكانت هذه المنطقة تُعرف أيضاً باسم: «مينا» Mine، ولعلها سُمّيت بهذا الاسم الأخير بواسطة بعض الأوروبيين الذين كانوا قد استقروا بها فيما بعد، وخاصةً أنها كلمةٌ معروفة، وهي تعني باللغات الأوروبية: (المنجم)[٥]. وهي تُعرف حتى الآن باسم «ساحل الذهب». وتلك المنطقة تُعتبر من أهم مناجم إنتاج الذهب في بلاد غرب إفريقيا، وكان يتمّ نقل المعدن النفيس من هناك عبر مسالك الصحراء إلى المراكز التجارية الكبرى التي كانت القوافل التجارية تتوقف بها، ومن ثَمّ كان الذهب يُنقل منها إلى أسواق مصر وأسواق شمال إفريقيا بعد ذلك[٦].

مناجم غياروا:

تحدّث عن هذه المناجم المؤرخُ «أبوعبيد البكري» (ت: ٤٨٧هـ)، حيث يذكر في روايته المشهورة عن مناجم الذهب في «مملكة غانة» (٤٦٩-٦٠٠هـ): أنّ مدينة (غياروا) كان بها أفضل أنواع الذهب المستخرج من أراضي «مملكة غانة»[٧]. وتقع هذه المناجم على مسيرة ١٨ يوماً من المدينة التي كان يسكن بها ملكُ غانة، وهذه المناجم توجد في بلادٍ ينتشر فيها العمران، وتتصل بها البيوت والمساكن[٨]. وكان يسكن بها عددٌ كبير من السكان المسلمين، وذلك حسب رواية «البكري»، أي إبان حقبة النصف الثاني من القرن ٥هـ/١١م[٩].

مناجم الونقارة:

هي واحدةٌ من أهم المناجم في غرب إفريقيا، والتي نالت شهرةً، وصيتاً كبيراً، وبسببها صارت «مملكةُ مالي»

(١) وللمزيد عن هذه الأسطورة الغانية، انظر: شارل مونتي وآخرون: مملكة وجدو بين الأسطورة والتاريخ، المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ص٢٩، إسماعيل حامد إسماعيل علي: التصور الإبداعي لأصل الذهب في الأساطير الشعبية في مملكة غانة.. أسطورة الثعبان المقدس وأمطار الذهب أنموذجاً، مؤتمر الفن الإفريقي أيقونة الإبداع الإنساني، أكاديمية الفنون، القاهرة، ٢٠١٩م، ص٤٩ وما بعدها.

(٢) إسماعيل حامد: التصور الإبداعي لأصل الذهب في الأساطير الشعبية في مملكة غانة، ص (٥٨-٥٩).

(٣) ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص١٠٥.

(٤) على السيد علي: التبادل التجاري بين مصر والتكرور، ص٩٥.

(٥) المرجع السابق، ص١٠٩.

(٦) علي السيد علي: المرجع السابق، ص١٠٩.

(٧) البكري: المغرب، ص١٧٦.

(٨) المصدر السابق، ص١٧٦.

(٩) المصدر السابق، ص١٧٦.

(٥٩٦-٨٧٤هـ) من أكثر بلاد الدنيا ثراءً بالذهب، ولهذا يقول الدكتور ابراهيم طرخان: «إنّ سيطرة مالي على حقول الذهب في «ونقارة» أدت إلى عظم ثروتها، ورخائها، وقوتها، فضلاً عن شهرتها، حتى إنّ بلاد السودان الغربي ظلت أعظم مصدراً للذهب لعالم البحر المتوسط منذ العصور الوسطى، حتى تمّ كشف أمريكا..»[١].

ثالثا: أنواع الذهب وطرق استخراجه:

ظهر الذهب في مناطق «مملكة مالي» (٥٩٦-٨٧٤هـ) على نوعين رئيسين، أحدهما: في زمان الربيع، ويقال إنه كان يبدو «مثل نبات ينمو» في مناطق الصحراء الكبرى، وله ورق شبيه بالنجيل، وأصوله التِّبر[٢]. أما «النوع الثاني» من الذهب الموجود في «مملكة مالي»: فكان يوجد في المناجم التي توجد في أماكن معروفة، ولا سيما تلك التي كانت تقع على ضفاف مجرى «نهر النيجر»، حيث كان يتمّ حفر الحفائر في هذه المناطق، حيث يوجد فيها الذهب، إذ يبدو مثل الحجارة والحصى[٣]. وكلا النوعين كانا يُعرفان باسم: «التِّبر»، وكان (النوع الأول) منه أفضل من الثاني، وكان أكثرهما جودةً، وأعظم من الآخر قيمةً وعياراً في ذات الوقت[٤]. وكان يتمّ الحفر في مناجم الذهب حُفرةً عميقة، وهي حفرة كانت تساوي تقريباً عمق قامة، أو ما يقاربها، وكان الذهب يوجد في جنباتها، وربما كان يُكشف عن الذهب متجمعاً في أعمق مكان في تلك الحفرة التي قام بها العمال في المناجم[٥].

ولهذا؛ فإنّ استخراج الذهب من المناجم لم يكن أمراً عسيراً في «مملكة مالي»، حيث إنه بلغ من كثرته أنه كان يوجد بالقرب من سطح الأرض، ومن ثَمّ لم يجد السكان في مالي عُسراً في الحصول عليه بأيسر الوسائل المتاحة لهم[٦]. ويذكر ابن فضل الله العُمَري (ت: ٧٤٩هـ) في روايته عن الذهب في مملكة مالي (٥٩٦-٨٧٤هـ): «ونبات الذهب بها يبدأ في شهر أغشت، ويقع- والله أعلم أنه مركب من تموز وآب (أي يوليو وأغسطس، والصواب أنه أغسطس فقط)- حيث سلطان الشمس قاهر، وذلك عند أخذ النيل (يقصد به: «نهر السنغال» الذي يجري في هذه البلاد) بالارتفاع والزيادة، فإذا حط النيل تتبع حيث ركب عليه في الأرض، فيوجد منه ما هو نباتٌ يشبه النجيل وليس به، فمن قراميه الذهب، ومنه ما يوجد كالحصى، والأول أفحل، وأخلص، وأقوم في العيار...»[٧].

بينما يروي القلقشندي (ت:٨٢١هـ) عن السلطان «منسا موسى» (٧١٢-٧٣٨هـ) قوله: «إنّ الذهب ببلاده حِمًى له، يُجمع له متحصله كالقطيعة (كالإقطاع، أي يكون مالاً خاصاً له)، إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة..»[٨].

ويذكر ثُلةٌ من المؤرخين القدامى، ومنهم العُمَري (ت: ٧٤٩هـ)، أنّ ملك مالي المسلم كان لا يأخذ من الوثنيين (أو الكفار) في بلاده الجزية، بل كان يستعملهم في استخراج المعدن النفيس[٩]. ولعل ذلك، فيما يرى الباحثُ، ربما لمهارتهم في تلك الصنعة أكثر من غيرهم[١٠]. وربما لهذا يقول القلقشندي: «انّ في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب، وهم بلاد همج، وعليهم إتاوة من التِّبر تُحمل إليه كلّ سنة، ولو شاء أخذهم. ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه ما فتحت مدينة من هذه المدن ونشأ بها الإسلام، ونطق به داعي الآذان، إلا قلّ بها وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يُعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار، فرضوا منهم ببذل الطاعة، وحِمْل قُرِّر عليهم..»[١١].

وهذه الروايةُ، وللحق، تحمل الكثير من الغرابة، لأنه ما العلاقة بين نشر الإسلام من ناحية، وندرة الذهب في أي من البلدان من ناحيةٍ أخرى[١٢]؟! إلا لو قُصد بها أنّ التجار

(١) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٦٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٩.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق، ص٢٨٩.

(٤) المصدر السابق، ص٢٨٩.

(٥) المصدر السابق، ص٢٩٠.

(٦) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٦٦.

(٧) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص (٤٤-٤٥).

(٨) القلقشندي: ج٥، ص٢٩٠.

(٩) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٦٦.

(١٠) طرخان: المرجع السابق، ص٦٧.

(١١) القلقشندي: ج ٥، ص٢٨٧.

(١٢) إبراهيم طرخان: دولة مالي، ص٦٧. ويصف ابن كثير (ت: ٧٧٤-١٣٧٢م) في روايته مملكة مالي أيام منسا موسى قائلاً: «له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين..» (البداية

المسلمين كانوا يبحثون عن الذهب، ومن ثَمّ صارت لهم شهرة عريضة في تجارته، والاستئثار به، سواء في ذهب غرب إفريقيا، أو في شرق إفريقيا حيث ذهب «سُفالة» (تقع في موزمبيق حالياً)، وهي مدينة الذهب المشهورة على ساحل شرق إفريقيا، وهو ما لا يعيبُ هؤلاء التجار المسلمين بأية حال، بل يحمل ثناءً على مهارتهم في التجارة، والتي يشهد بها أعداؤهم أكثر من غيرهم، بل كانت هذه التجارة سبباً في انتشار دينهم (الإسلام) في الآفاق.

رابعا: طريق الذهب (سجلماسة – تمبكتو):

لعبت التجارة عبر دروب «الصحراء الكبرى»، دوراً كبيراً في نشر الثقافة العربية، كما ساهمت التجارة أيضاً في انتشار الإسلام في المناطق التي تقع فيما وراء الصحراء. وقد سلكت قوافل التجارة عدة طرق ومسالك، للوصول إلى تلك الأصقاع النائية، ولا سيما بلاد السودان الغربي، والتي قامت فيها العديد من الدول والممالك الإسلامية، وصارت شاهدةً على دور هذه التجارة الصحراوية، وكذلك دور التجار العرب والمسلمين في ذلك التحول الثقافي، والديني، وكذلك العرقي (الإثني) الكبير الذي طرأ على هوية السكان القاطنين في تلك البلاد.

وكان «الطريق التجاري» الرئيس يبدأ مساره من المراكز التجارية في شمال إفريقيا، وكانت القوافل التجارية تتجه نحو الجنوب، عبر المسالك الصحراوية الواسعة الامتداد، وكذلك عبر واحاتها الفسيحة الأرجاء. ولا ريب في أنّ تلك القوافل كانت تمرّ بالعديد من المدن وكذلك المراكز التجارية الكبرى التي يقع أكثرها في بلاد المغرب، وموريتانيا حالياً، وكذا في مناطق غير بعيدة عن بلاد السودان الغربي. ولعل من أهم تلك المراكز التجارية الموجودة في غرب إفريقيا: تغازى، وأودغست، وتمبكتو (تنبكت)، وجاو (مالي)، وجنّي (مالي)، وكانو (نيجيريا).. إلخ، أما أشهر مراكز التجارة الصحراوية في شمال إفريقيا، إبان «العصر الوسيط»، فهي: مراكش، وفاس، وسجلماسة، وكذلك القيروان (تونس)، وطرابلس، وفزان (ليبيا).. إلخ[1].

وكان يوجد طريقٌ آخر يبدأ من مدينة (تلمسان) بالمغرب الأوسط (الجزائر حالياً)، ثم يتجه التجار بقوافلهم صوب الجنوب حتى بلاد السودان الغربي.

وكانت القوافل تسلك عدداً من الطرق والمسالك الرئيسية حتى تصل إلى أسواق غرب إفريقيا آخر المطاف، ومن أهمها: الطريق الذي يبدأ من مراكش، ثم سجلماسة، ثم يمتد حتى منحنى نهر النيجر، وكذلك المناطق التي تتوغل بعيداً نحو الجنوب، حتى تصل القوافل إلى «تمبكتو»[2]. وكذلك الطريق الذي يبدأ من «تونس» إلى المنطقة فيما بين نهر النيجر وبحيرة تشاد، إضافةً للطريق الذي يبدأ من «طرابلس» إلى مناطق «بحيرة تشاد» حيث تقع بلاد الكانم والبرنو، وهي التي تُعرف بـ«بلاد السودان الأوسط»[3]. وكان «طريق طرابلس» يرتبط بشكلٍ أو بآخر بالطريق القادم من أرض مصر عبر طريق «درب الأربعين»، ثم مروراً بمناطق الواحات المصرية، ثم عبر واحة «فزان» في ليبيا.

وعلى أية حال؛ فإنّ أهم هذه الطرق التجارية على الإطلاق ذلك الطريق الذي يُعرف بـ«طريق الذهب»، وهو

والنهاية: ج١٤، ص١١٦). وهو ما يُشير إلى اتساع ملكه، وامتداد نخوم بلاده. وعن أحوال مملكة مالي أيام السلطان منسا موسى، يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: «وقد بلغت إمبراطورية مالي أوج قوتها وثرائها في عهد منسا موسى..». وقد زادت الفتوحات العسكرية في أيامه، وضمّ لمملكته أراضي كثيرة، حيث استولى منسا موسى على مدن ولاتة، وتمبكتو. كما استولت جيوشه على جاو (جوا) في أواسط النيجر. ويقول بعض المؤرخين إنه لم ينج من طموحات السلطان منسا موسى العسكرية في بلاد السودان الغربى سوى مدينة جنّي التجارية، ومملكة الموسي (موسي) Mossi المستقلة (محمد أمين محمد: مجلة الدراسات الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ص٢٨٤، وانظر: Guilhem، P. ٣٤). وفي هذا الشأن يقول إبراهيم طرخان: «وليس من شك في أن ملك مالي كان متأثراً بتقليد وثني قديم، أو أن الوثنيين الذين قاوموا الدين الإسلامي، ولم يقبلوا الدخول فيه، أشاعوا هذه الخرافات أو امتنعوا عن استخراج الذهب...» (إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٦٧-٦٨).

(١) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠٠م، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١. وللمزيد عن حركة التجارة الصحراوية، انظر: إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، ص٦٦، وانظر: كرم الصاوي باز: تجارة الذهب والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في بلاد السودان الغربي في الفترة من القرن (٣-٥هـ)، دراسات في تاريخ بلاد المغرب والسودان الغربي والأوسط في العصر الإسلامي، الإفريقية الدولية للنشر، القاهرة، ٢٠١٦م، ص (٢٩٥-٢٩٦).

(٣) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص١٢.

الطريق الذي كانت تعبره القوافل التي تحمل الذهب قادمةً من أسواق السودان الغربي، ثم كانت القوافل تتجه إلى بلاد المغرب، وشمال إفريقيا، وكذلك أسواق مصر، وهذا الطريق هو المعروف باسم «طريق سجلماسة – تغازى– تمبكتو»[١].

ويمرّ هذا الطريق عبر «وادي السوس» بالمغرب الأقصى، وهو من أهم مراحله[٢]، كما كان هذا الوادي يُعرف أيضاً باسم: «وادي درعة»، وهو الوادي الذي كان يخترق «جبال الأطلس» جنوباً نحو الدروب التي تؤدي إلى أهم أسواق الذهب في غرب إفريقيا[٣]. ولعل أهمية هذا الطريق تكمن على أية حال في موقعه الاستراتيجي، وخاصةً أنه يُعتبر أقرب الطرق الصحراوية إلى أسواق الذهب في الجنوب، كما أنه الطريق نفسه الذي يمرّ على مناجم الملح، والتي يجب الحصول عليها من أجل مقايضة ألواح الملح بالذهب، كما أشرنا إلى ذلك الأمر آنفاً.

خريطة توضح أهم طرق ومسالك الصحراء التي كانت تعبرها القوافل التجارية

سجلماسة:

تُشكل مدينة «سجلماسة»، التي تقع جنوبَي بلاد المغرب الأقصى، بدايةً ما يُعرف بـ«طريق الذهب»[٤](*)، حيث كانت تتجمع بها القوافل التجارية، ولا سيما القادمة من مدينة فاس، أو مراكش، ومن ثَمّ يتأهب التجار لاختراق الصحراء الكبرى. ومن مدينة «سجلماسة» بدأ الرحالة «ابن بطوطة» (ت: ٧٧٩هـ) رحلته الشهيرة إلى بلاد السودان الغربي مع إحدى القوافل التجارية[٥]. وهذا الطريق المعروف بـ«طريق الذهب» حسب رواية البكري (ت: ٤٨٧هـ) كان يبدأ من مدينة سجلماسة جنوب المغرب، ثم يتجه إلى «تيحمامين»، وكان وبها مناجم النحاس، والمسافة بينهما يومان (أي حوالي ٨٠كم)، ثم تتجه القوافل إلى «وادي درعة» في حوالي يومين، ومن «وادي درعة» جنوب المغرب الأقصى إلى منطقة «اذامت»، ثم إلى «ورزازات» يومان، ثم إلى بلاد «هسكورة» في أربعة أيام (حوالي ١٦٠كم)، ثم إلى «هزرجة»، وهي على مسافة يوم من مدينة «أغمات»[٦]، أي حوالي ٤٠كم، وكلّ هذه المدن تقع بالمغرب حالياً.

وقد تأسست مدينة «سجلماسة» أيام دولة «بني مدرار» في حوالي سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م لتكون عاصمة دولتهم، وهي تقع على مسافة ٤٦ مرحلةً من مدينة القيروان[٧]، أي أكثر من ١٦٢٤كم بحسابنا. بينما المسافة بين كلٍّ من «سجلماسة» و«وادي درعة» مسيرة أربعة أيام[٨]، أي حوالي ١٦٠كم.

ويصف «البكري» هذه المدينة بقوله: «سجلماسة مدينةٌ سهليةٌ، أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة.. ولها بساتين كثيرة..»[٩]. وقد أورد ابن بطوطة عن سجلماسة:

(١) نبيلة حسن محمد: في تاريخ إفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٤٥.

(٢) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٨٨.

(٣) محمد عبد العال أحمد: منسا موسى ورحلة حجه الشهيرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص٥٥.

(٤) * الطريق من مدينة سجلماسة إلى أراضي غانة (طريق الذهب): يذكر أبوعبيد البكري أنه بين سجلماسة ووادي درعة مسيرة أربعة أيام، وما بين سجلماسة والقيروان ٤٦ مرحلة (انظر البكري: المغرب، ص (١٥١–١٥٢). أما الطريق المؤدي من وادي درعة إلى بلاد السودان؛ فمن وادي درعة خمس مراحل إلى وادي تارجا، وهو أول الصحراء، ثم مسيرة ثلاثة أيام في الصحراء الكبرى، حتى نصل إلى رأس المجابة، ثم بيرتزامت، وهي غير عذبة، ثم شرقاً إلى بير الجمالين على مسيرة أربعة أيام من بلاد الإسلام، ثم إلى جبل أدرار بالبربرية: جبل الحديد، ومنه إلى مجابة مسيرة ثمانية أيام، وهي المجابة الكبرى، وبها ماء لقوم من بربر صنهاجة، ثم إلى قرية مدوكن لصنهاجة، ومنها إلى غانة أربعة أيام، وهي مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام (انظر: البكري: المغرب، ص١٦٣–١٦٤).

(٥) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص١٠١.

(٦) البكري: المغرب، ص (١٥٢–١٥٣).

(٧) المصدر السابق، ص١٥١.

(٨) المصدر السابق، ص١٥٢.

(٩) المصدر السابق، ص١٤٨.

«(هي) من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب..»[١].

وتُعتبر «سجلماسة» فيما يذكر الجغرافي «الزهري» من بلاد السوس الأقصى، والتي تحدُّها من الشرق دروب «الصحراء الكبرى»، والتي تؤدي إلى «بلاد لمتونة»، وكذلك «بلاد زناتة» جنوب المغرب[٢].

وحسب «المسعودي» (ت: ٣٤٦هـ)؛ فإنّ بين بلاد «السوس الأقصى» و«السوس الأدنى» مسيرة عشرين يوماً (أي حوالي ٤٠٠كم)، عمائر متصلة إلى أن تتصل بـ«وادي الرمل» و«القصر الأسود»[٣]. ولا يعني أنّ مدينة «سجلماسة» كانت تمثّل بداية «طريق الذهب» عبر الصحراء؛ أنه كان طريقاً لا تسيرُ فيه إلا القوافل التجارية التي كانت تحمل الملح لمقايضته بالذهب فحسب، بل كانت القوافل تحمل أيضاً إلى أسواق «السودان الغربي» العديد من المنتجات الأخرى، مثل: الرقيق، والملابس، والزجاج.. إلخ، ثم كانت القوافل التجارية تعود شمالاً بعد انتهاء مهمتها إلى شمال إفريقيا وغيرها محملةً بالذهب.

ويذكر ابن بطوطة أنه أقام في «سجلماسة» مدّةً، اشترى خلالها بعض الإبل التي كان يحتاج إليها في رحلته الطويلة[٤]، إلى أن تتجمع القوافل في «سجلماسة» قاصدةً بلاد الذهب، ثم تبدأ الرحلة صوب «الصحراء الكبرى». ويذكر ابن بطوطة أنّ القافلة التي رافقها إلى «السودان الغربي» بدأت رحلتها في غُرة المحرم (من سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، وكانت القافلة تقصد الطريق إلى «تغازى» (تغازة)[٥] (في موريتانيا)، وكانت تضمّ جماعات من تجار «سجلماسة»، وكذلك غيرهم من التجار القادمين إليها من المناطق الأخرى[٦].

وعلى أية حال؛ كانت القوافل التجارية تضم في الغالب خليطاً ديموغرافياً من شتى الأصقاع، كلهم يريدون الوصول إلى «أرض الذهب».

ويذكر ابن حوقل (ت: ٣٥٠هـ): أنّ التجار كانوا يفضلون سلوك هذا الطريق المؤدي إلى غرب إفريقيا في فصل الشتاء[٧]، وذلك اتقاءً لشدة الحرارة في هذا الطريق، وكذلك بسبب قلة الماء، وهي من أكثر المصاعب التي كانت تواجههم خلال عبور هذا الطريق، وخصوصاً في أيام الصيف.

أودغست:

تُعتبر «أودغست» Audghust من المراكز التجارية التي تقع جنوب غربَي الصحراء الكبرى، وتقع أطلالها في دولة «موريتانيا» حالياً، وهي واحدةٌ من المراكز المهمة بفضل تجارة الذهب والملح.

كانت بعض أحمال الذهب القادم من مناجم غانة يُصدّر من أسواق «أودغست»، وكان يتمّ بها تصفية خام الذهب المستخرج، ثم كان يُصهر بعد ذلك، ثم تتمّ تنقيته من الشوائب العالقة به، ولهذا اشتهرت «أودغست» بجودة ما كان بها من الذهب، ولهذا يذكر أبوعُبيد البكري، وغيره: «أنّ الذهب المجلوب من أسواق أودغست أجود صنوف الذهب في الأرض، وأصحه»[٨]. وكان يتمّ استيراد الذهب إلى «أودغست» خاماً، ثم كانت تتمّ معالجته فيها، وعمل السبائك الذهبية، أو العملات الذهبية. وكان الطلب كبيراً على الذهب المصدّر من «أودغست»، خاصةً أيام «العصر الفاطمي» (٣٥٨-٥٦٧هـ)، وخلال سيطرتهم على بلاد المغرب، وشمال إفريقيا[٩].

كما اشتهرت «أودغست» بـ«تجارة الملح»، وكان يُصدّر منها إلى أسواق غانة، وما جاورها، ومن أهم مناطق إنتاج «الملح» بها «أوليل»، التي تقع عند مصب «نهر السنغال» عند المحيط الأطلنطي، وتبعد مسيرة شهر عن «أودغست»[١٠].

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٦٠٦.

(٢) الزهري: كتاب الجغرافية، ص١١٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، تحقيق: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٤٨.

(٤) ابن بطوطة: ج٢، ص٦٠٦.

(٥) يُكتب اسم مدينة «تغازى» بفتح التاء المثناة، والغين المعجم، وألف وزاي مفتوح كلاهما، (للمزيد انظر ابن بطوطة: ص٦٠٦).

(٦) ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٦٠٦.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٤.

(٨) وللمزيد انظر: حسين سيد عبدالله مراد: دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى الخامس الهجري، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السادس والأربعون، مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٩م، ص١٣٥، وللمزيد عن هذه المدينة، انظر: Willie F. Page: Encyclopedia of African History, p.24.

(٩) حسين سيد عبدالله مراد: دولة أودغست، ص١٤٣.

(١٠) المرجع السابق، ص١٤٣.

ولما قلّت أهمية «أودغســت» التجاريــة بمرور الزمن، وخصوصاً بعــد أن نضب «الملح» الذي كان يُســتخرج من منجم «أوليل»، أخذت مكانتها وأهميتها مدينة أُخرى، وهي: «تغــازى»، حيث صارت تلك الأخيرة مركــزاً مهماً لتصدير «الملح» إلى أســواق بلاد الســودان الغربي، بدلاً من مدينة «أودغســت»، حتى إنه في أيام الرحالــة «ابن بطوطة» (ت: ٧٧٩هـ)، وخلال رحلته الشهيرة من مدينة «سجلماسة» إلى بلاد غرب إفريقيا، لم يتحدث عن «أودغســت»، والتي كانت فيمــا يبدو قد أفل نجمها، ومن ثَــمّ كانت القوافل التجارية تعبر منطقة «تغازى» بدلاً منها في ذلك الوقت، أي منتصف القرن ٨هـ/١٤م.

تغازى (تغازة):

تقع أطــلالُ «تغــازى» (تغــازة) Taghaza في دولة «موريتانيــا» حالياً[١]، وهي تمثّل إحدى المراحل المهمة في «طريق الذهب» من بلاد المغرب الأقصى، وحتى الســودان الغربي، وتبعد «تغازى» مســيرة خمســة وعشرين يوماً عن مدينة «سجلماسة»[٢].

وتشتهر «تغازى» بوجود «مناجم الملح»، وقد ظل الملح يُستخرج منها فيما يذكر البعض حتى القرن ١٠هـ/١٦م[٣]. ولم تنــل تغازى مدح ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـــ) لمّا مرّ بها مــع القافلة التي جاء معها، بل قدحها في ثنايا روايته عنها، واشــتدّ في ذمها، وذمّ ســكانها، وقال: «وهي قريةٌ لا خير فيها..»[٤].

وكانــت «تغازى» تتميــز في ذلك الوقــت بطراز فريد لبيوتهــا، فهي مشــيدة من حجارة الملح، كما بُني مســجد المدينة منه أيضاً، أما ســقوف بيوت أهلها فكانت من جلول الإبل. وتذكر المصادر التاريخيــة أنّ «تغازى» منطقة قليلة الشجر، وتبدو فيها الصحراء أكثر وضوحاً، وأرضها رملية. غير أنّ أهميتها كانت بسبب وجود «الملح» بها، وكان الناس يحفرون الأرض، ثم كانــوا يجدون ألواح الملح، وكانت تبدو ضخمة الحجم، وتظهر وكأنها كانت قد نُحتت في الأرض[٥].

وكانــت كلّ واحدة من الإبل، من تلــك التي تذهب مع القوافل التجارية إلى بلاد السودان الغربي تحمل نحو أربعة من ألواح الملح لا أكثر[٦]، وذلك بسبب ثقل وزن تلك الألواح، يقول الحسن الوزان: «ويحمل كلّ جمل أربعة ألواح من الملح، وليــس لعمال تغازة من أقواتٍ ســوى التــي تُجلب لهم من تمبكتو..»[٧].

وتُشير بعضُ الروايات إلى أنّ الغالب على سكان تغازى أنهم من عبيد مسوفة، وهي من قبائل البربر المعروفة، وهم الذيــن كانوا يقومون بحفر الأرض بحثاً عن الملح. ويُشــير البعــض إلى أنّ أهل تغازى كانوا يقتاتون على ما يأتي إليهم من وادي درعة وسجلماسة، ولا سيما التمر، كما كانوا يأكلون أيضاً لحوم الإبل[٨].

ولأنّ الملح كان يندر وجوده في بلاد الســودان الغربي؛ فكانــوا يقايضون الذهب بالملح، يذكر «القلقشــندي» (ت: ٨٢١ هـ): أنّ الملح لم يكن يوجد في بالســودان الغربي، إلا في مدينة اســمها: «نكوا»، ثم يقــول: «وبهذه المدينة معدن ملح، وليس في شــيء من الســودان الوالجين في الجنوب، والمساقين لسجلماســة، وما وراءها ملح سواه..»[٩]، بينما يذكــر العُمَري (٧٤٩ هـــ): «أنّ الملح معدومٌ في داخل بلاد السودان..»[١٠]، وهي إشارات مهمة تؤكد قلة «الملح» وندرته في هذه البــلاد، ولذلك كان ملح «تغــازى» يمثّل لهم طوق نجاة، ولأنّ أهل السودان يحبون «الملح» فكانوا يقبلون عليه ويأخذونه مقابــل «الذهب»[١١]، فكان التجار الســودانيون يأتون إلى «تغــازى» للحصول على الملــح، ويحملون معهم

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمــارات، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص٥٥٤.
وللمزيد عن مدينة تغازى (تغازة)، وأهميتها في حركة التجارة الصحراوية، انظر: Willie F. Page: Encyclopedia of African Historty, London, p. 217.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٦٠٦.

(٣) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص٥٥٤.

(٤) ابن بطوطة: ج٢، ص٦٠٦.

(٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٦٠٦.

(٦) الحسن الــوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: عبدالرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٥٢٦.

(٧) الوزان: المصدر السابق، ص٥٢٦.

(٨) ابــن بطوطة: ج٢، ص ٦٠٦، وللمزيد عن أهمية تغازى في تجــارة الــذهب والــملــح، انــظــر: Willie F. Page: Encyclopedia of African Historty, p.24.

(٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩١.

(١٠) المصدر السابق، ص٢٩١.

(١١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٢.

الذهب، ثم يقايضون هذا بذاك.

وكان التجار المسافرون إلى تغازى يعانون الأمرّين بسبب كثرة الحشرات بها، وكذلك كثرة الذباب، وكان التجار يأخذون الماء من «تغازى»، تأهباً لدخول الصحراء الممتدة التي تليها. وقد وصف ابن بطوطة إقامته في تغازى مع قوافل التجارة قائلاً: «وأقمنا بها عشرة أيام في جهد..»[١]، ولعلها تبدو كلمات مقتضبة جداً، ولكنها تشي بحال التجار في هذه المدينة، وما لقوا فيها من مشقة.

ثم كانت القوافل التجارية ترتحل من منطقة تغازى مسيرة عشرة أيام، في صحراء جرداء جافة، لا ماء فيها إلا ما ندر، وربما تجد بعض القوافل التجارية إذا كانوا من سعداء الحظ ماءً أبقاه لهم المطر[٢]، وهذا الأمر كان يتوقف على سقوط المطر، وكمية المياه التي تأتي بها السماء، وهو أمرٌ من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وعلى هذا؛ فإنّ رحلة التجار بحثاً عن معدن الذهب كانت دونما ريب تحمل الكثير من المخاطر التي كان يجب على تجار القوافل الصحراوية أن يكونوا متأهبين لها قدر ما يستطيعون.

وعن طبيعة الصحاري والبوادي، ووعورتها، وهي التي تقع بين المغرب وبلاد السودان الغربي، يقول ابن حوقل: «وبين المغرب والبلدان (التي قدّمت ذكرها) وبلد السودان مفاوز وبراري منقطعة، قليلة المياه، متعذرة المراعي، لا تُسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر، دائم الورود..»[٣]، وهو ما يشير بجلاء إلى صعوبة سفر القوافل التجارية، وشدة الحرارة وارتفاعها في مثل هذه الصحاري، ولهذا كان التجار يفضلون السفر بقوافلهم فيها خلال فصل الشتاء، حيث تنخفض درجة الحرارة لحدٍّ كبير، وهو ما كان يساعد بالطبع على سهولة السفر.

أيولاتن (ولاتة):

هي من المدن التي كانت تعبرها القوافل التجارية في طريقها إلى بلاد السودان الغربي، وتقطع القوافل التجارية الرحلة من مدينة سجلماسة إلى «إيولاتن» في حوالي مسيرة شهرين تامّين[٤]، وهي مسافةٌ طويلة جداً، بحساب أنّ اليوم يعادل حوالي ٤٠ كيلومتراً، فمسيرة شهرين تكون حوالي ٢٤٠٠ كيلومتر.

وقبل أن تصل القوافل التجارية إليها كانوا يعبرون صحاري وعرة، وتتسم بأنها شديدة الحرارة، وهي أشدّ في حرها مما سواها، وكانت قوافل كلٍّ من قبيلتي مسوفة وبردامة البربريتَيْن ترسل إلى التجار الماء ليبتاعوه، بسبب ندرة الماء في هذه الصحاري القاحلة، وكذلك بسبب شدة الحرارة بما لا يطيقونه[٥].

وقد قدح الرحالة ابن بطوطة في سكان هذه المدينة (أي إيولاتن)، حيث ذكر أنهم قوم سوء، وأنهم يحتقرون مَن ليس على لونهم، ثم قال: «فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم، لسوء أدبهم، واحتقارهم الأبيض»[٦].

تمبكتو (تمبكت - تنبكت):

تذكر المصادر السودانية هذه المدينة باسم: «تنبكت»[٧]، وهي تُعرف أيضاً باسم: «تمبكت»، وكذلك فإنها تُكتب: «تمبكتو» في الكتابات الغربية، ولا سيما الكتابات الفرنسية منها، وتقع هذه المدينة شمال «بماكو» عاصمة مالي حالياً، بحوالي ١٣٠٠ كم عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى[٨]. وتبعد مدينة «تمبكتو» نحو ١٣ ميلاً عن «نهر النيجر»، كما أنها تبعد عن مدينة «جاو» Gao (عاصمة مملكة صنغي فيما بعد) حوالي ١٢ مرحلةً في اتجاه الشرق، وتبعد عن مدينة «ولاتة» مسيرة خمسة عشرة يوماً[٩].

---

(١) ابن بطوطة: ج٢، ص٦٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦٠٦.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٤.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ج٢، ص٦٠٨.

(٥) المصدر السابق، ص٦٠٨.

(٦) المصدر السابق، ص (٦٠٨–٦٠٩).

(٧) عبدالرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص (٢٠-٢١)، وانظر أيضاً: الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، الطبعة الأولى، طرابلس، ٢٠٠٠م، ص٩٩.

(٨) ويقال: إن اسم «تنبكت» أو «تمبكت» مأخوذ من اسم امرأة كانت تسكن في هذه المدينة قديماً، وكانت المرأة تدعى «بكت»، وكانت امرأة ذات مكانة وشهرة بها، ثم أضيف إلى اسمها المقطع «تن»، وهو يعني بلغة الزنج «مكان»، أي أنّ اسم هذه المدينة يعني «مكان (المرأة التي تدعى) بكت» (انظر، الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص١٠).

(٩) الهادي مبروك الدالي: مرجع سابق، ص٩٩.

ويذكر عبد الرحمن السعدي: أنّ «تنبكت» (تمبكتو) تأسست ذات صبغة إسلامية لا خلاف عليها، ومن ثَمّ كانت تمبكتو دوماً في حضن الإسلام منذ بداية تأسيسها، وما تدنست بالوثنية قط «ولا سُجِدَ على أديمها قَطّ لغير الله..»[١]، بينما يذكر الحسن الوزان في روايته: أنّ الذي بنى هذه المدينة السلطان منسى (منسا سليمان) (٧٤١-٧٦١هـ)[٢].

وقد تمتعت «تمبكتو» بمكانة تجارية واقتصادية كبيرة في السودان الغربي، حيث أضحت سوقاً تجارياً كبيراً، ومقصداً للقوافل، وكان يفد عليها الرحالة بطريق الهند، وتقصدها قوافل التجارة من ساحل المغرب الأقصى، وطرابلس، وكانت «ولاتة» سوقاً للتجارة قبل تأسيس مدينة «تمبكتو»، وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار، فكانوا يفدون إلى مدينة تمبكتو من أسواق مصر، وغدامس (ليبيا)، وكذلك من فاس، وبلاد السوس جنوب المغرب، وغيرها[٣].

وقد أُعجب «الحسن الوزان» (ت: ٩٦٠هـ) بمدينة «تمبكتو» لمّا زارها (إبان منتصف القرن السادس عشر الميلادي)، ويذكر أنها كانت عامرةً بالحوانيت التي تعجّ بالصناع والتجار، ولا سيما المنتجات والسلع القادمة من المراكز التجارية في أوروبا التي كان يحملها التجار المغاربة. كما كانت تشتهر أيضاً بأنّ بيت مال الملك فيها عامرٌ بالأموال، وقضبان الذهب، والتي قد يزن بعضُها نحو ٤٤٠ كجم من الذهب، أو حوالي ١٣٠٠ رطل[٤].

وكانت مدينة «تمبكتو» من أهم المراكز التجارية التي تتمّ فيها تجارة «الذهب»، وهي أحد أهم مراحل هذا الطريق، إلى جانب أنه كانت تخرج منها أربعة من الطرق التجارية الكبرى، والتي كانت تعبرها القوافل التجارية، **وهي كما يأتي:**

أما (الطريق الأول): فكان يمرّ بمدينة «جاو» (في مالي حالياً) عاصمة «سلطنة صنغي» (٧٧٧-١٠٠٠هـ)، وكذلك بلاد الكانم عند بحيرة تشاد (السودان الأوسط)، ثم إلى أسواق مصر[٥].

وفيما يخصّ (الطريق الثاني): فكان يمرّ به التجار، ثم كانوا يتجهون بدورهم إلى الشمال، حتى يصلوا إلى أسواق إفريقية (تونس حالياً).

أما (الطريق الثالث): وهو الطريق الذي يمرّ عبر أقاليم سودان وادي النيل، ولا سيما القادم عبر طريق «درب الأربعين»، ومن ثمّ إلى إقليم دارفور، وباقي مناطق غرب سودان وادي النيل.

بينما (الطريق الرابع): كان يمرّ من وإلى «سجلماسة» جنوبَي بلاد المغرب الأقصى[٦].

وكانت مدينة «تمبكتو» تسيطر على الذهب القادم من المناجم المحلية، وكذلك تلك المجاورة لها، ولعلّ من أبرزها مناجم «فولتا السوداء» Black Volta، ومناجم «غابات الأكان» Akan Forests[٧].

ويُشير المستشرق «كولين ماكفيدي» بدوره إلى أنّ مدينتَي «تمبكتو»، و«جنّي» صارتا محطتَي قيام للقوافل التجارية التي كانت تخترق «الصحراء الكبرى» في اتجاه الشمال، نحو بلاد «المغرب الأقصى»، وكذلك بلاد «المغرب الأوسط» (أي الجزائر)، وغيرها من المناطق الأخرى[٨]. ونظراً لأهمية هذه المدينة في «تجارة الذهب»؛ فقد اهتم الأوروبيون بها منذ القرن ٩هـ/١٥م، خصوصاً عن طريق تجار مدينة «فلورنسا»[٩] [١٠].

---

(١) السعدي: تاريخ السودان، ص٢٠، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص٢١٩.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ص٥٣٩. غير أنّ الوزان أخطأ في تقدير أيام حكم هذا السلطان، حيث يقول: «مدينة بناها ملك يُدعى منسى سليمان في عام ٦٠٠ للهجرة..» (الوزان: وصف إفريقيا، ص٥٣٩).

(٣) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص ٢١٩.

(٤) المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص٢٢٠، وللمزيد عن طريق ومسالك التجارة عبر الصحراء، انظر كرم الصاوي باز: نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في الفترة من القرن (٨-١٠هـ/١٤-١٦م)، ص١٩٩ وما بعدها.

(٦) حسن إبراهيم حسن: مرجع السابق، ص٢٢٠.

(٧) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص١٠٥.

(٨) المرجع السابق، ص١٠٥.
وللمزيد عن هذه المدينة، وأهميتها في حركة التجارة الصحراوية، انظر: Willie F. Page: Encyclopedia of African Historty, pp.219-220.

(٩) فلورنسا: هي إحدى المدن الإيطالية المعروفة، والتي اشتهرت أيضاً بالتجارة.

(١٠) جيمس ديفي: البرتغال في إفريقيا، ترجمة: جاد طه،

ومن جانب آخر؛ يذهب المستشرق «جيمس ديفي» James Davi إلى أنّ حقبة القرن «الخامس عشر» الميلادي (أي: القرن التاسع الهجري) تُعدّ بمثابة حقبة الاكتشافات الكبرى في ساحل إفريقيا الغربي على أيدي البرتغاليين[١]، فقد اهتم المستعمرون الأوروبيون، ولا سيما البرتغاليون منهم، بمنطقة غرب إفريقيا، بسبب ما كانت تتمتع به هذه البلاد من ثراء هائل بفضل وجود مناجم الذهب، ولهذا عملوا على الوصول إلى مدينة «تمبكتو»، وكذلك غيرها من مراكز التجارة الكبرى في تلك النواحي، بحثاً عن المعدن النفيس، بهدف السيطرة على تجارة الذهب، واحتكارها بعيداً عن نفوذ التجار العرب والبربر الذين كانوا يسيطرون عليها.

خامسا: التجارة الصامتة (مقايضة الملح بالذهب):

كان لـ«طبقة التجار» من السكان المحليين القاطنين في بلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا)، بصفة عامة، طريقةٌ فريدةٌ في مقايضة معدن الذهب بـ«الملح»، وهي أنّه إذا وفد على أهل السودان التجار القادمون من بلاد شمال إفريقيا، وكان أكثرهم من العرب والبربر، وكانوا محملين بألواح «الملح»، سواءً ملح مناجم «أوليل» التي تقع عند مصب نهر السنغال عند الحدود فيما بين موريتانيا والسنغال، أو ذلك الملح المستخرج من مناجم منطقة تغازى (تقع أطلالها في موريتانيا)، فكان التجار القادمون من الشمال يضعون ألواح الملح في منطقةٍ متعارف عليها فيما بين الطرفين، ثم يذهبون بعيداً عنها، عندئذ كان التجار السودانيون يأتون، ثم يقومون بوضع الذهب في مقابل ألواح الملح، فإذا أخذ التجار الذهب، كان أهل السودان يأخذون الملح مكانه[٢]. أمّا إذا حدث العكس، فلم يأخذ تجار الملح ما يقابله من الذهب، فكان هذا يعني أنهم ليسوا راضين عن تلك «المقايضة»، أي أنهم يريدون كميات أكبر من الذهب، عندئذ كان التجار السودانيون يعودون بكمية أكبر من الذهب إذا وجدوا أنّ ذلك أمراً مقنعاً. فإذا أخذ تجار الملح الذهب؛ فإنّ ذلك يعني أنّ عملية «المقايضة» انتهت برضاء الطرفين، وهي التي تُعرف في روايات المصادر التاريخية باسم: «التجارة الصامتة»[٣].

ولا ريب في أنّ «التجارة الصامتة» نوعٌ غريب من التجارة، ولكنه كان ذائعاً في بلاد السودان الغربي إبان مرحلةٍ مبكرة من تاريخهم، والمؤكد أنها طريقة لم تدم وقتاً طويلاً. ومن المعلوم أنّ سلعة «الملح» كانت نادرةً في أسواق بلاد «غرب إفريقيا»، فإنهم كانوا يضطرون إلى أن يقايضوا الذهب الذي لديهم بألواح الملح، على الرغم من اختلاف قيمة كلٍّ منهما السوقية، فالمصادر تقول: «والملح معدوم في كلّ بلاد السودان»[٤]، ومن اللافت أنّ التجار السودانيين كانوا فيما تذكر المصادر يبذلون «نظير كلّ صُبْرَة ملح مثله من الذهب»[٥]، أي أنّ كلّ كمية من الملح تساوي وزنها من الذهب.

وعلى أية حال؛ يبدو أنّ «التجارة الصامتة» كانت معروفةً فحسب إبان البواكير الأولى لنشاط «التجارة الصحراوية»، ومن ثَمّ كان هذا النوع من التجارة يناسب بشكلٍ أو بآخر وقته وزمانه ذاك، ولا ريب في أنه بمرور الوقت تغيرت طُرق التبادل التجاري، وتجاوز التجار من الجانبين هذا «النمط البدائي» من «المقايضة» (أي التجارة الصامتة)- إذا جاز لنا وصفه بذلك، وهو الأمر الذي تؤكده الروايات التاريخية، حيث تذكر أنّ تجار الذهب السودانيين كانوا يشترون لوح «الملح»، أو حِمْل «الملح»، نظير قدر معيّن من مثاقيل الذهب، وهو قدرٌ كان يتفاوت بالطبع من مرحلةٍ زمنية إلى مرحلة أخرى.

ولَعل من ذلك ما يذكره ابن حوقل (ت: ٣٥٠هـ)، في كتابه المعروف (وصف الأرض)، أنّ حِمْل الملح بمدينة «أودغست» كان يُباع في بلاد السودان الغربي في أيامه فيما بين «مائتي» إلى «ثلاثمائة» دينار[٦]. بينما يذكر الرحالة «ابن بطوطة» أنّ حِمْل الملح كان يُباع في أيامه (ت: سنة ٧٧٩هـ) بحوالي عشرة مثاقيل إلى ثمانية من الذهب في مدينة «إيوالاتن»[٧]. أما في مدينة «مالي»، التي حكم ملوكها خلال

سلسلة كتب سياسية، الدار القومية للطباعة، القاهرة، دون تاريخ، ص٢٦.

(١) المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩١.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٩١.

(٥) المصدر السابق، ص٢٩١.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٢.

(٧) ابن بطوطة: ج٢، ص٦٠٦.

الفتـــرة (٥٩٦-٨٧٤هـ)، فكان الحِمْل من «الملح»، فيما يذكر ابن بطوطة، يُباع بحوالي «ثلاثين» مثقالاً من الذهب، وربما يبلغ ثمنه عشـــرين مثقالاً، وربما يصل في أوقات الذروة إلى حوالي «أربعين» مثقالاً من الذهب[١]. وهو ما يعني أنّ ســـعر الملح كان يختلف في الوقت نفســـه من مدينة إلى أخرى في بلاد غرب إفريقيا، وهو ما يبـــدو جلياً من خلال رواية ابن بطوطة الذي زار هذه البلاد خـــلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

سادساً: التأثير السياسي والاقتصادي للذهب على الممالك الإفريقية ودوره في لفت أنظار الأوروبيين إلى غرب إفريقيا:

يُمكن القولُ بـــأنّ الذهب وتجارته لعبَا دوراً سياســـياً واقتصاديـــاً مهماً في ازدهار الممالـــك الواقعة في مناطق غـــرب إفريقيـــا، ولا ريب فـــي أنّ حالة الرواج السياســـي والاقتصادي تلك- التـــي نقصدها هنا- تبدو جليةً إلى حدٍّ كبير فـــي ثنايا روايات المصـــادر التاريخية التي وردت في مؤلفات المؤرخين القُدامى، ولعـــل أبرزها ما رواه الرحالة ابـــن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ): أنه وجـــد أنّ الذهب يكاد يكون مستخدماً في كلّ ما شاهده من الأدوات، والزينة، وفي بيوت السكان القاطنين في «مملكة مالي»، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، إبـــان زيارته لها[٢]، فكان الذهب يكاد يكون معدناً شعبياً منتشراً في بلاد غرب إفريقيا بصفة عامة، وكان يقتنيه الجميع، بل إنّ القلقشـــندي (ت: ٨٢١هـ) ينقل روايـــةً تذكر أنّ ملك غانة كان لديه مِعْلَفان من الذهب (وعـــاءان لوضع العلف)، كان يربط عليهما فرســـين له أيام مقعده[٣].

ويبدو ازدهار هذه الممالك الإفريقية واضحاً من خلال ارتبـــاط ملوكهم بمعدن الذهب، ومن ثَمّ صار الحكامُ هناك، ولا ســـيما حكام مناطق «غرب إفريقيا»، مثل: «مملكة غانة» (٤٦٩-٦٠٠هـــ)، و«مملكة مالـــي» (٥٩٦-٨٧٤هـ)، وكذلك «مملكة صُنغـــي» (٧٧٧-١٠٠٠هـ)، مشـــهورين دون غيرهم بأنهم «ملوك الذهب»[٤]. وتشـــير بعض الروايات إلى امتداد النفوذ السياســـي والإداري لحكام «مملكة مالي»، خصوصاً أيام «منسا موســـى» (٧١٢-٧٣٨هـ)، امتداداً كبيراً، حتى إنّ البعض يذكر أنّ «منسا موسى» كان يحكم عدداً من الممالك والأقاليم يبلغ عددها ٢٤ إقليمـــاً ومملكة، وكان ملوك هذه البلاد يدينون لـ«سلطان مالي» بالولاء والطاعة[٥].

كما يبـــدو ازدهار ممالـــك غرب إفريقيا السياســـي والاقتصادي بشـــكلٍ واضح لا ريبة فيه، من خلال الرحلات التي كان يقوم بها ملوكُ هذه البلاد لأداء مناســـك الحج في بلاد الحرمين الشـــريفين، وكانت هـــذه المواكب فخمةً بما كانت تضمّه من أعـــدادٍ كبيرة من الحجاج، والعبيد، وكذلك لفتت تلك الرحلات الأنظار إلى ما كان يحمله هؤلاء الحكام الأفارقـــة في مواكبهم مـــن مثاقيل الذهـــب العظيمة التي أدهشت كلّ مَن كان يراها خلال مسيرها[٦].

وقد كانت أشـــهرُ «رحلات الحج» التـــي قام بها حكام غرب إفريقيا، ولفتت الأنظار بشدة صوب ثراء هذه البلاد، تلك الرحلة التي قام بها «منســـا موســـى» (٧١٢-٧٣٨هـ) «سلطان مالي»، اســـتغرقت هذه الرحلة قرابة سنتين ذهاباً وعودة، في الفترة من ســـنة (٧٢٤-٧٢٥هـ)[٧]، وكذلك نالت

---

(١) المصدر السابق، ص٦٠٦.

(٢) ولعل من أهـم الروايات التي أشـارت لذلك الازدهـار الاقتصادي، ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٢، البكري: المغرب، ص١٧٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص (٦١٤-٦١٥)، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩٢. وتعتبر رواية ابن بطوطة أكثر الروايات التي توسعت في الحديث عن الازدهار الاقتصادي تحديداً في مملكة مالي التي كان قد زارها، ووصف أحوالها في ذلك الوقت. وللمزيد عن هذه الرواية بالتفصيل انظر حديث ابن بطوطة، ص (٦١٤-٦١٥)، عن مملكة مالي في بداية هذه الورقة.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٤. وللمزيد عن ثراء ملوك غرب إفريقيا، انظر: ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص١٣٦.

(٤) انظر البكري: المغرب، صـ١٧٦-١٧٧، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٧، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج١، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٢٣، الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٥، القلقشندي: ج٥، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٥) Lavinia Dobler & William A. Brown: Great Rulers of the Africain Past, Zenith Books, New York, 1965, p.4.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١١٦، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٤٥٧.

(٧) وتُعد رواية المقريزي في كتابه المعروف، والموسوم بـ(الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك) من أفضل وروايات المصادر عن رحلة حج منسا موسى، وما

رحلة «أسكيا الحاج محمد» (٨٩٩-٩٣٥هـ) «سلطان صنغي» إلى بلاد الحرمين شهرةً واسعة، وكانت في سنة ٩٠٢هـ[١].

ويرى الباحثُ أنه كان لمثل هذه الرحلات دورٌ كبيرٌ في تعريف العرب والمسلمين في بلاد المشرق الإسلامي بأحوال هذه الممالك الإفريقية النائية، وشعوبها المسلمة، وما كان في بلادهم من ثراءٍ عظيم، وهو ما شجّع أعداداً غير قليلة من بلاد المشرق على الذهاب إلى ممالك إفريقيا جنوب الصحراء فيما بعد.

ويرى الباحثُ أنّ ملوك غرب إفريقيا قصدوا فيما يبدو من فخامة مواكبهم خلال «رحلة الحج» أن يُظهروا مدى رخاء بلادهم أمام الشعوب التي كانوا يمرون ببلادهم خلال هذه الرحلات. وثمّة رأيٌ يذهب إلى أنّ موكب السلطان «منسا موسى» (٧١٢-٧٣٨هـ)، خلال رحلته للحج، كان قد أحدث دوياً هائلاً حيثما ذهب، فقد رآه تجار البُندقية (البنادقة) (البُندقية: مدينة فينيسيا بإيطاليا الآن) الذين كانوا يقومون بالنشاط التجاري في الأسواق المصرية خلال قدوم «منسا موسى» إلى مدينة القاهرة سنة ٧٢٤هـ، وقد انبهر التجارُ البنادقة بهذا الثراء الطائل الذي شاهدوه، وهذا الموكب الفخم الذي صاحب سلطان مالي، فقد أصاب العجبُ التجار الأوروبيين لهذا الكمّ العظيم من مثاقيل وأحمال الذهب التي كان يحملها موكب «منسا موسى».

ومن المعتقد أنّ التجار البنادقة ما لبثوا أن أرسلوا التقارير إلى الحكام في بلادهم، يصفون فيها موكب سلطان مالي الذي لا مثيل له[٢]، ولا ريب أنه كان لهذه الأخبار صداها العريض في إثارة مطامع الأوروبيين في ذهب مملكة مالي خاصةً، ومناجم الذهب في غرب إفريقيا بصفة عامّة، ومن ثَمّ لم يمرّ وقتٌ طويل حتى تأسست «الجمعية الجغرافية» في مدينة «ميورقة» الأندلسية، وكانت الغاية منها رسم الخرائط للتعرف على الطريق المؤدية إلى «أرض الذهب» التي يحكمها السلطان «منسا موسى»[٣]. ولعل من دواعي اهتمام الأوروبيين آنذاك بالذهب الإفريقي أنهم كانوا قد استنفدوا ما كان لديهم من احتياطي الذهب، وذلك بسبب الحروب الطويلة التي خاضها الأوروبيون فيما بينهم[٤].

وقد لعب اليهود دوراً كبيراً في رسم خريطة مملكة مالي، ومناجم الذهب بها، وكذلك أهم مراكز التجارة الصحراوية التي كانت تمرّ بها القوافل التجارية القادمة من الشمال، وكان من أهم تلك الخرائط: «الخريطة القطالونية»[٥]، والتي تصوّر قلب الصحراء الكبرى، ويظهر فيها رجلٌ مُلثم راكباً جملاً، ويسير بخطىً سريعة تجاه السلطان «منسا موسى»، وكان يمسكُ بإحدى يديه صولجان الحُكم، ويحمل في يده الأخرى قطعةً كبيرة من الذهب، ثم يقدّم الملك المهيب قطعة الذهب إلى ذلك الراكب الملثم الذي يبدو مهرولاً نحوه، ولا ريب في أنّ «اللثام» هناك يرمز للتجار العرب والبربر القادمين من الشمال الذين كانوا يتحكمون في تجارة الذهب. وتُطلق «الخريطة القطالونية» على هذا الملك: «**موسى مالي... سيد زنوج غينية**[٦]، **ويكثر الذهبُ في بلاده... حتى صار أغنى ملك في جميع البُلدان..**»[٧].

كان يحمله من مثاقيل الذهب (المقريزي: التبر المسبوك، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٤٠-١٤٣). وللمزيد، انظر أيضاً: محمد عبد العال أحمد: منسا موسى، ص٥٤. وكانت أولى رحلات الحج لملوك غرب إفريقيا لأحد الملوك واسمه برمندانة، ثم حج بعده سلطان مالي منسا ولي (علي) بن ماري جاطة، وكان معاصراً لأيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وكانت رحلته بالطبع قبل منسا موسى بعدة عقود من الزمن (المقريزي: التبر المسبوك، ص ١٤٠-١٤١).

(١) محمد عبد العال أحمد: المرجع السابق، ص٥٤.
وعن رحلة السلطان أسكيا محمد إلى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج، انظر: J. Spencer Trimingham: A History of West Africa, Oxford University Press, London, 1975, p.98.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٤، ص١١٦، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ص٤٥٧، وللمزيد عن رؤية التجار البنادقة لموكب منسا موسى، انظر: محمد أمين محمد: مجلة الدراسات الإفريقية، ص٢٨٥، محمد عبد العال أحمد: منسا موسى، ص٥٤.

(٣) محمد عبد العال أحمد: المرجع السابق، ص٥٤.

(٤) علي السيد علي: التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور، ص١٠٣.

(٥) الخريطة القطالونية: هذه التسمية نسبة لإقليم كاتالانيا (قطالونيا) في إسبانيا حالياً، وهو الإقليم الذي يُعرف أيضاً باسم: «إقليم الباسك».

(٦) من المؤكد أنه يقصد هنا «مملكة غانا»، وليس غينية المذكورة.

(٧) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص٨٨.

هكـذا كان للخريطة القطالونية، وغيرها من الخرائط التي صممها «الكارتوجرافيـون» (الجغرافيون) الأوروبيون، دورٌ كبير في أن يسـيل لُعاب الأوروبيين نحو مناجم الذهب في غرب إفريقيا، ومن ثَمّ بدأ المخطط للكشف عن «طريق الذهب»، والمناجم في مملكة مالي. وكأنّ الذهب بدلاً من أن يصير نعمةً لأهل هذه البلاد، وما جاورها، صار عليهم نقمة ووبالاً، مما جعل تلك البـلاد ميداناً للصراعات بين القوى الاستعمارية للسيطرة على الذهب، وتجارته عبر الصحراء.

الخريطة القطالونية
وتصور المراكز التجارية المؤدية لمناجم الذهب في مالي ويصور فيها السلطان منسا موسى الملقب بـ«ملك الذهب»

وعلـى أية حـال؛ كان البرتغاليون من أكثر الشـعوب في أوروبا ميلاً للمغامرة، وهـم الأكثر دراية بالملاحة، ولا سـيما خلال الحقبة المتأخرة من «العصر الوسيط»، وكان لديهم أسطولٌ كبيرٌ يشـق عُباب المحيطات والبحار، وكان ولعهم في بلوغ «مناجم الذهب» في إفريقيا أكثر من غيرهم من الأوروبيين. ويعتبر «جيمـس ديفي» James Davy أنّ القرن ٩هـ/١٥م هو حقبة اكتشـاف البرتغاليين لسـواحل غرب إفريقيا على «المحيـط الأطلنطي»، حيث قاد الأمير البرتغالي «هنري الملاح» ما يعدّه بعض المستشرقين بمثابة نهضـة بحرية، وهـي التي بلغت ذروتها بـأول رحلة قادها المستكشـف الشهير «فاسكو دا جاما» للوصول إلى سواحل الهند للسيطرة على «تجارة التوابل»[١].

وقد اشـتهر الأمير «هنري» باسم «هنري الملاح» نظراً لمهاراتـه، ومغامراتـه البحرية، وكذلك معارفه الواسـعة بالملاحة[٢]، وكانت لديه رغبةٌ عارمةٌ في اكتشـاف سواحل إفريقيا، وكانت غايته أن يُميط اللثام عن أسـرار تلك القارة ذات التخـوم القريبة من بـلاده، ومن ثَمّ الاسـتيلاء على كنـوز هذه البـلاد التي كانت قد ذاعت شـهرتها بالذهب. وقد أشـرف هنري الملاح على تأسيس ترسـانة برتغالية لصناعة السفن، وأقام مرصداً، ومدرسة لدراسة الجغرافية، والملاحة البحرية[٣].

وكانت السـواحل المغربية أقرب التخوم الإفريقية من الأسطول البرتغالي، ولهذا ففي سنة ١٤١٥م، شارك «هنري» في أول «مغامرة استكشـافية» قام بها البرتغاليون لسواحل إفريقيـا، ثم احتلوا «سـبتة»، وبذلك صـار لهم موطأ قدم على السواحل المغربية. ومن خلال المعلومات التي أخذها البرتغاليون من الأسرى المغاربة، الذين وقعوا تحت أيديهم، عرفوا الكثير من أسـرار «تجارة الذهب»، ومسـالكها التي تمتد من المغرب شمالاً إلى بلاد غرب إفريقيا في الجنوب، وكذلك عرف البرتغاليون أسرار تجارة العبيد[٤].

ويرى بعض المستشـرقين أنّ «هنـري الملاح» كان ذا نهج مثالي للوصول لمأربه الأكبر، وهي الكشـف عن أسرار السَّواحل الإفريقية الغربية للوصول لمناجم الذهب من خلال تحركاته التجارية، والتبشيرية[٥]. وهو ما لا يراه الباحث؛ إذ كان نهج هذا الأمير اسـتعمارياً بامتياز، وكان بعيداً عن تلك «المثاليـة المزعومة»، وغير الحقيقية بالمرّة، فهو نهجٌ يقوم بالأساس على الاسـتيلاء دون حق على ثروات الغير بالقوة الغاشـمة، بينما جعلوا التبشـير بالعقيدة المسيحية تُكَأة تساعدهم في خدمة مخططاتهم الاستعمارية.

وثمّة رؤيـةٌ يراها البعضُ، مفادهـا الربط بين حركة المدّ الاستعماري الأوروبي نحو بلاد المغرب وسواحل غرب

(١) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص١٠٩.

(٢) مات الأمير هنري الملاح في سنة ١٤٦٠م. وللمزيد عن حياة الأمير هنري الملاح، انظر: جيمس ديفي: البرتغال في إفريقيا، ص٢٦. وانظر أيضاً:
The New American Desk Encyclopedia, New York, 1982, p.533.
David Crystal: The Cambridge Paperback Encyclopedia, Cambridge University Press, 2000, p.394.

(٣) كولين ماكفيدي: مرجع سابق، ص١٠٩.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٩.

(٥) جيمس ديفي: البرتغال في إفريقيا، ص٢٦.

إفريقيا منذ منتصف القرن ٩هـ/١٥م من جانب، وطرد المسلمين عنوةً من «بلاد الأندلس» من جانب آخر، وحسب تلك الفرضية؛ فإنّ هذا المدّ البرتغالي كان بمثابة موجة جديدة من الصراع بين الطرفين منذ خروج المسلمين من بلاد الأندلس، وسقوط آخر المعاقل الإسلامية لهم في «غرناطة» في سنة ١٤٩٢م[١]، وقد كان من بين أهداف تلك الحركة الاستعمارية في رأي البعض أن يتعقب الأوروبيون المسلمين الفارين من الأندلس، وعلى هذا كانت هذه الموجة في رأيهم تهدف للقضاء على معاقل المسلمين على ساحل إفريقيا الغربي؛ لإجهاض أي محاولة للعودة مرّةً أخرى لإعادة أمجادهم المفقودة[٢]، وهو ما يراه الباحث افتراضاً مبالغاً فيه، ولعل الغاية من ذلك محاولة بعض المستشرقين إيجاد تسويغ أخلاقي مزعوم لحركة لاستعمار الأوروبي لبلاد غرب إفريقيا، بينما كان الهدف هو الحصول على الذهب الإفريقي ليس إلا[٣].

ويُشير المستشرق «كولين ماكفيدي» لكيفية احتكار البرتغاليين لـ«تجارة الذهب»، ومحاصرة التجار العرب والبربر، ولا سيما المغاربة منهم، وهم أصحاب اليد الطولى في تلك التجارة منذ أمد بعيد، إذ يقول: «وثار التساؤل بين البرتغاليين: هل يمكن أن يصلوا إلى تخوم مالي عن طريق الإبحار بموازاة السواحل التي تطل على غرب إفريقيا، وهي بلاد السودان الغربي حتى يستأثر البرتغاليون بتجارة العبيد والذهب، وبالتالي تقطع الطريق على المغاربة..»[٤].

ويعني ذلك أنّ استيلاء البرتغاليين على «التجارة الصحراوية» سوف يؤدي بالضرورة إلى المواجهة مع التجار المغاربة لقطع الطريق عليهم، ومنعهم من الوصول إلى مناجم الذهب. كما لعبت «الإرساليات التبشيرية» دوراً خلال المدّ الاستعماري البرتغالي على السواحل الإفريقية عموماً، وإن كان تأثيرهم في الساحل الشرقي أكثر منه في الساحل الغربي للقارة الإفريقية[٥].

ويعتقد البعضُ أنّ العمل التبشيري للبرتغاليين في إفريقيا كان يسير في أي مستعمرة يستقرون بها مطابقاً للحالة السياسية[٦]، وربما يُقصد بذلك الوضع السياسي في أي بلد كان يستعمره البرتغاليون، غير أنّ البرتغاليين ظلوا نحو ١٨ سنة لم يستطيعوا الإبحار لأية منطقة إفريقية تقع جنوب «رأس بوجادو»، فلم يتمكن الأمير «هنري الملاح» صاحب الفضل في تلك المغامرة من أن يقنع قباطنة السفن البرتغالية بالإبحار نحو الجنوب، وذلك لأنّ الرياح كانت تهبُّ آنذاك على تلك المنطقة دوماً في اتجاه معاكس، وهو الأمر الذي تستحيل معه رحلة العودة إلى السواحل البرتغالية مرّةً أخرى[٧].

ومن المعلوم أنّ «الحملات البرتغالية» الأولى على الساحل الغربي لإفريقيا كانت تتسم بأنها بطيئة وشاقة، وعلى الرغم من ذلك استولى البرتغاليون فيما بعد على «جزر الكناري» في سنة ١٤٢٤م[٨]. ومن الواضح أنّ مسيرهم إبان هذه الفترة كان يحيط به الغموض، وخصوصاً بسبب خشيتهم من ردّة فعل

(١) عبدالله عبدالرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٣٩، ١٩٨٩م، ص٩.

(٢) وقد أراد البرتغاليون تطويق المسلمين في إفريقيا، ومن ثم تحالفوا مع ملوك الحبشة، وعن ذلك التحالف يقول عبدالله عبدالرازق: «وترتب على هذه الغزوة الاستعمارية محاولة تطويق المسلمين، وذلك بالاتصال بالمملكة المسيحية في بلاد الحبشة بزعامة «برستر جون» Prester John، وأدت هذه الحركة إلى قيام الكشوف الجغرافية التي انتهت بالدوران حول إفريقيا، والوصول إلى شاطئها الشرقي، ودخلت في صراع دموي مع الإمارات والممالك الإسلامية، سواء في شمال القارة، أو في شرقها، أو غربها.. اتخذت هذه الموجة صبغة صليبية، ذلك لأن البابوية باركت هذا العمل العدائي ضد المسلمين، واعتبرت كل من يُستشهد في سبيل تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة» (عبدالله عبدالرازق: المرجع السابق، ص٩).

(٣) كولين ماكفيدي: مرجع سابق، ص١٠٩

(٤) المرجع السابق، ص١٠٩

(٥) جيمس ديفي: البرتغال في إفريقيا، ص٧٧.

(٦) وعن دور المبشرين البرتغاليين في تلك المرحلة، يقول جيمس دفي: «كان العمل التبشيري يسير في المستعمرة مطابقاً للحالة السياسية، ومنذ بداية القرن السادس عشر، رسخت أقدام المبشرين البرتغاليين في حصون سوفالا وموزمبيق، كما تتبعوا خطوات التجار إلى الداخل، وقد قضى فرانسس كزافيير ستة أشهر من سنتي ١٥٤١ و١٥٤٢م في القيام بالأعمال التبشيرية...» (البرتغال في إفريقيا، ص٧٧).

(٧) كولين ماكفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ص١٠٩.

(٨) جيمس ديفي: مرجع سابق، ص٢٧.

كلٍّ من العرب والبربر على الجانب الآخر[١].

وفي نهاية المطاف؛ تمكّن المستعمرون البرتغاليون من الوصول إلى مصب «نهر السنغال»، ثم وصلوا بعد ذلك إلى سواحل «سيراليون» في أقصى غرب إفريقيا، وكان ذلك قبل موت الأمير «هنري الملاح»، ثم أقاموا في «جزيرة أرجوين»، وهي جزيرةٌ مجاورة للسواحل الإفريقية الغربية. ثم استطاع المستعمرون البرتغاليون أن يتسللوا إلى العمق الإفريقي عبر الدخول إلى المناطق الصحراوية رويداً رويداً، وأن يقتطعوا لأنفسهم جزءاً كبيراً من «تجارة الذهب»[٢].

وفي سنة ١٤٣٦م، استولى البرتغاليون على «ريو دي أورو»[٣]، وهي المنطقة الواقعة في غرب إفريقيا، والتي تعني: «ملك الذهب». وعلى هذا؛ فقد حقق البرتغاليون مأربهم الاستعماري الكبير الذي ظلوا يحلمون به، وهو السيطرة على «تجارة الذهب» التي أسالت لعابهم على غرار غيرهم من الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى منذ رحلة سلطان مالي «منسا موسى».

الخاتمة:

- أكدت هذه الورقةُ أنّ بلاد غرب إفريقيا (السودان الغربي) تمتلك العديد من المناجم التي تنتج إنتاجاً عظيماً من الذهب، ولهذا عُرف ملوك تلك البلاد باسم «ملوك الذهب». وكان الذهب سبباً لازدهار تلك البلاد سياسياً واقتصادياً أكثر من الشعوب الأخرى التي كانت تجاورهم. ويمكن القول بأنّ مناجم الذهب كانت نعمة على أهل السودان الغربي، وسبباً لثرائهم ورفاهيتهم مقارنةً بغيرهم من الشعوب الإفريقية الأخرى، إلا أنها كانت في الوقت نفسه نقمة على بلادهم؛ لأنها كانت سبباً في اهتمام الأوروبيين ببلادهم من أجل احتلالها، والسيطرة على تجارة الذهب.

- وقد أشارت هذه الورقةُ لوجود العديد من المسالك والطرق التي كانت تعبرها القوافل التجارية قادمةً من بلاد شمال إفريقيا حتى تصل إلى مناطق غرب إفريقيا حيث مناجم الذهب، وكان أشهر تلك الطرق ذلك الطريق المعروف باسم «طريق الذهب»، وكان هذا الطريق يبدأ من سجلماسة، ثم ينتهي بمدينة «تمبكتو» التي تُعدّ واحدة من أهم مراكز «تجارة الذهب» في غرب إفريقيا.

- وبيّنت الورقةُ أنّ التجار العرب والبربر لعبوا الدور الأهم في حركة التجارة عبر الصحراء، إذ كانوا يقومون بدور «الوساطة التجارية» بين شعوب السودان الغربي وباقي التجار القادمين من البلاد الأخرى النائية عن بلادهم، مثل: التجار الأوروبيين، وتجار مصر، والشام.. إلخ.

- وبيّنت الورقةُ أنّ موكب السلطان «منسا موسى»، خلال رحلته للحج إلى بلاد الحجاز، ترك أثراً سياسياً واقتصادياً لافتاً في بلاد المشرق، وبقيت أصداؤه ماثلةً أمام أحداق المستعمرين الأوروبيين بما كان يحمله هذا الملك الإفريقي من مثاقيل وأحمال الذهب التي لا حصر لها، والتي أبهرت التجار الأوروبيين، وبخاصة «البنادقة»، ممن كانوا في أسواق القاهرة، حيث بعث هؤلاء «البنادقة» لملوكهم برسائل عاجلة عن سلطان مالي، ومدى ثراء بلاده بالذهب.

- وأشارت الورقةُ إلى أنّ اليهود قدّموا يد العون بسخاء للأوروبيين، ولا سيما البرتغاليين، من خلال مساهمتهم في تأسيس «الجمعيات الجغرافية»، والتي كانت تهدف لوضع «الخرائط الجغرافية» لوصف مسالك ودروب الصحراء المؤدية لمناجم الذهب في السودان الغربي. وكان من أشهرها خريطة اشتهرت باسم «الخريطة القطالونية»، وقد كشفت هذه الخريطة للبرتغاليين مدى ثراء «مملكة مالي»- التي كان يحكمها «منسا موسى»- بالذهب، وكان الأوروبيون آنذاك في مَسيس الحاجة للذهب الإفريقي بسبب الحروب والصراعات التي كانت تنشب فيما بينهم بين الفينة والأخرى، وهو ما استنفد ما كان لديهم من مخزون الذهب.

- وأكدت هذه الورقةُ أنّ المستعمرين البرتغاليين وضعوا الخطط للسيطرة على مناجم الذهب في السودان الغربي الذي كان التجار المغاربة أكثر التجار درايةً به، ومن ثمّ تمكن البرتغاليون في نهاية الأمر من الدخول إلى العمق الإفريقي، ومن ثمّ احتكار تجارة الذهب الإفريقي ■

(١) المرجع السابق، ص٢٧.

(٢) كولين ماكفيدي: مرجع سابق، ص١١٠.

(٣) جيمس ديفي: مرجع سابق، ص٢٧.